السيميائية في الأمثال العربية
الخرافة الحيوانية

أ. د. إياد عبد المجيد

المثل الجاهلي من أهم المصادر اللغوية التي حرص الرواة على تدوينه، والاهتمام به في وقت مبكر، وقد أفردت للأمثال تصانيف خاصة بها، أقدم ما وصلنا منها: (أمثال العرب) للمفضل الضبي (ت ١٧٠هـ)، وكانت الأمثال الجاهلية أيضا من بين زاد المؤرخين، وأصحاب الأخبار واللغة على التأليف فيها الذي كان يبدو معيارا لقوة ثقافة المؤلف الذي كان عليه أن يلم بأخبار العرب القدماء، وأخبار آبائهم وأساطيرهم.

ولتحديد مفهوم المثل، لابد من الرجوع إلى معاجم اللغة، فقد توزع معنى المثل فيها على المحسوس والمجرد (التسوية والمماثلة، الشبه والنظير، الحديث، الصنعة، الخبر، الحدو، الحجة، الند، العبرة، الآية، المقدار، القالب، نصب الهدف، الفضيلة، التصوير، الالتصاق بالأرض، الذهاب، الزوال، التنكيل، العقوبة، القصاص، الجهد، النمط، الإبانة ..)

وقد ورد في لسان العرب عن اللفظ "مثل" : معاني مختلفة نذكر منها: " والمثل: الحديث نفسه، والمثل الشيء الذي يضرب لشيء، مثلا فيجعله مثله (...) (١).

أما تعريف المثل اصطلاحا، فالسيوطي في كتابه (شرح الفصيح) يعرفه بقوله:

" إنه جملة من القول مقتضبة من أصلها أو مرسلة بذاتها، فتتسم بالقول وتشتهر بالتداول، فتنتقل عما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها، وعما يوجه الظاهر إلى أشباهه من المعاني ؛ فلذلك تضرب وإن جهلت أسبابها التي خرجت عليها. " (٢)

وقد عرف زلهايم في كتابه (الأمثال العربية القديمة) الأمثال القديمة بأنها: " أقدم ما نعرفه من الأمثال العربية، وهي تبدأ بالعصر الجاهلي، وتمتد حتى بداية العصر العباسي الأول. (٣)، ونحا نحوه عبد المجيد عابدين في كتابه (الأمثال في النثر العربي القديم)، حيث كانت حدود المثل القديم عنده تبدأ من الجاهلية حتى عصر بني أمية . (٤)

ومهما يكن من أمر فإن للمثل الجاهلي ميزة تدافع عنه ضد الشكوك التي تدور حوله، ولا شك أن كمّا من أمثال الجاهلية قد استمرت تروى بخرافاتها، فالمثل فن قولي جماعي قصير، لا يمكن تعمد تأليفه وانتشاره، ولأنه فن قولي جماعي فهو لا يملك نفسه، ولا يملكه أحد، لأنه جمل سائرة منتشرة على ألسنة الناس، وكثير ذو مغاليق لاتفهم إلا إذا شرحت أو اقترنت بقصتها التي تفسرها، ولأن الأمثال التي تحتاجها الدراسة غالبا ما تكون جملا مجتزأة من قصص تعليمي قصير، أو أحداث تاريخية وقعت، فكانت النوادر أو الأساطير أو الخرافات، لذلك ترتبط الخرافات بالأمثال، والأمثال بالخرافات، يقوا ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ): "... العرب لم تضع الأمثال إلا لأسباب أوجبتها، وحوادث اقتضتها، فصار المثل المضروب لأمر من الأمور عندهم كالعلامة التي يعرف بها الشيء " (٥) وهذا الشيئ هو القصة أو الخرافة التي يزعم أن المثل قيل فيها، ولذلك كان جمعة اللغة والرواة سببا في حفظ كثير من الخرافات الجاهلية عن طريق حفظهم للأمثال الجاهلية وتفسيرها.

لقد كان لتصانيف جمعة الأمثال فضل كبير في الحفاظ على القصص والخرافات الجاهلية التي تتنوع مادتها في كتب الأمثال تنوعا ثريا، يصعب معه تبويب أنماط موضوعاتها، وإيجاد معيار معين لتصنيفها، ولكن أهم نمطين يبرزان في كتب الأمثال هما: الخرافة الحيوانية، والخرافة التاريخية، وهذات النمطان يوجبان نمطا ثالثا وهي الأساطير الفلكية.

وسنحاول الآن الحديث عن النمط الأول الذي يبرز في كتب الأمثال وهو الخرافة الحيوانية على أمل الحديث عن النمطين الآخرين في بحث لاحق.

أولا: الخرافة الحيوانية.

إن الخرافة الحيوانية الجاهلية ذات تركيب قصير أصلا فهي نوع من الأمثال الطويلة ذات نصوص خرافية قصيرة، تحمل مضمونا تعليميا خلف رموزها الحيوانية.. ويعد ما وصل إلينا عن الجاهليين من الخرافة الحيوانية ثروة بالنسبة للدراسات الحديثة، حتى مع قصر نصوصه وقلتها ؛ لأنه كما ذكر أحمد أمين يدل على الحياة العقلية العربية في الجاهلية، وأنه لو جمع وامتحن لدلّنا على ناحية خاصة من نواحي الخيال (٦).

ويؤكد التراث الجاهلي اللغوي أن ارتباط الجاهليين بالحيوان كان قويا، فكثير من التعابير الجاهلية تستخدم فيها صور حيوانية. فهم يقولون: مات فلان كمد الحبارى..وذلك لأن " الحبارى تلقي ريشها مرة واحدة، وغيرها من الطير يلقي الواحدة تلو الواحدة، وليس يلقي واحدة إلا بعد ثبات الأخرى، والحبارى إذا تحسرت فترت همتها، فإذا نظرت إلى صويحباتها يطرن فربما ماتت كمدا " (٧).

ويقولون: وعده وعيد الحبارى للصقر، لأن الحبارى تقف للصقر وتحاربه ولا سلاح لها (٨)، وهذه التعابير تعتمد على ملاحظة مرتبطة بفكر خرافي، فالحبارى إذا ماتت لا تموت كمدا بل لأنها ضعفت عن الطيران. وأمثال هذه الملاحظة الخرافية تعدّ بدايات يغزل منها القصص الخرافي، فالمؤكد ان الجاهليين عرفوا الخرافة الحيوانية.

وتتنوع الخرافة الحيوانية فيها من خرافة رمزية تشخص الحيوان، فتنطق على لسان الحكمة، والفكاهة والموعظة، وخرافة تفسيرية تفسر بعض المظاهر الموجودة عند الحيوان: كخرافة ذنب الضب، وخرافة صياح الديك، وما يحكى عن قنزعة الهدهد، وطوق الحمامة، ولا يمنع أن يكون الأخير قد مرّ بمرحلة كانت له فيها حبكة أو كان أكثر تركيبا، ثم وصل إلينا مختصرا مثلما حدث للأساطير التي تروى عن كائنات لاوجود لها كالغول والنسناس والعنقاء والهامة.

وأقدم ما يطالعنا من خرافات حيوانية في كتب الأمثال مجموعة من الأمثال التي تفسرها خرافات حيوانية مابين قصير جدا، وطويل بعض الطول: كخرافة المثل: (كيف أعاهدك وهذا أثر فأسك) (٩)، وخرافة المثل: (أجرأ من خاصي الأسد). (١٠) فخرافة (الحية والفأس)، وهي خرافة المثل: " كيف أعاهدك وهذا أثر فأسك " قد أوردها الضبي فريدة لا أخت لها في كتاب (أمثال العرب) (١١)، ولم نجدها عند غيره سوى في مجمع الميداني، والظاهر أنه نقلها عنه. (١٢) وهي خرافة جاهلية نظمها النابغة في قصيدة له (١٣). ونصها يذكر:

"..... إن أخوين كانا في إبل لهما، فأجدبت بلادهما، وكانا قريبا منهما واد فيه حية، قد حمته من كل أحد.

فقال أحدهما للآخر: يافلان، لو أني أتيت هذا الوادي المكلئ ؛ فرعيت فيه إبلي، وأصلحتها،

فقال له أخوه: إني أخاف عليك الحية، ألا ترى أن أحدا لم يهبط ذلك الوادي إلا أهلكته !!

قال: فوالله لأهبطنّ.

فهبط ذلك الوادي، فرعا (كذا) إبله به زمنا ؛ ثم إن الحية لدغته فقتلته.

فقال أخوه: ما في الحياة بعد أخي خير، ولأطلبنّ الحية فأقتلها، أو لأتبعنّ أخي.

فهبط ذلك الوادي فطلب الحية ليقتلها، فقالت:

ألست ترى أني قتلت أخاك، فهل لك في الصلح ؟ فأدعك بهذا الوادي، فتكون به ؛ وأعطيك ما بقيت دينارا في كل يوم.

قال: أفاعلة أنت ؟!

قالت: نعم.

قال: فإني أفعل.

فحلف لها، وأعطاها المواثيق لا يضيرها، وجعلت تعطيه كل يوم دينارا، فكثر ماله، ونمت إبله، حتى كان من أحسن الناس حالا.

ثم إنه ذكر أخاه، فقال: كيف ينفعني العيش ؛ وأنا أنظر إلى قاتل أخي فلان ؟!

فعمد إلى فأس فأحدها، ثم قعد لها، فمرت به، فتبعها، فضربها فأخطأها، ودخلت الجحر، فرمى الفأس بالحبل، فوقع فوق جحرها، فأثر فيه.

فلما رأت ما فعل ؛ قطعت عنه الدينار، الذي كانت تعطيه.

فلما رأى ذلك ؛ تخوف شرها ندم، فقال لها:

هل لك أن نتواثق، ونعود إلى ما كنا عليه ؟

فقالت: (كيف أعاهدك وهذا أثر فأسك) وأنت فاجر، لاتبالي العهد.

فكان حديث الحية والفأس مثلا مشهورا من أمثال العرب " (١٤)

وفي مرحلة تالية لكتاب أمثال العرب للضبي، يبرز كتاب أبي فيد السدوسي (ت١٩٨هـ) وقد ضمنه ست خرافات حيوانية، كلها على لسان الضبع، تحمل طابع السخرية من حمقها وموقها. (١٥)

والمتأمل في بنية الخرافة الحيوانية يجد أن ما يميزها قصرها، وعدم طولها، وهذا يعود لطبيعة انتمائها للمثل الإشاري الخرافي، وهو نوع من الأمثال الطويلة التي تستخدم بعض جملها أمثالا، ينساب عند النطق بها نص خرافة المثل بمجملها، وذلك النوع من الأمثال غايته تعليمية بالدرجة الأولى، فالخرافة عند استخدامها لعناصر حسية ؛ تهدف في الحقيقة إلى توضيح مغزى معنوي للمتلقي، فالسامع لابد أن يخرج منها بحكمة، حتى لو كانت ذات طابع تهكمي فكاهي، ويترتب على قصر نص الخرافة الحيوانية بساطة تركيبها، فلا يوجد في نصوصها قصة داخل قصة، كما يحدث في قصص كليلة ودمنة، بل إن كل قصة نص متكامل لوحده، سواء كانت شديدة القصر أو متوسطته.

ويبدو أن الجاهليين كانوا يعتمدون على أسلوب شفوي معين في سرد الخرافة الحيوانية، حتى يوائموا بين الإمتاع والتعليم، فمما يميز الخرافة الحيوانية الجاهلية اعتمادها شيئا ما على التنغيم، وبعض الإيقاع، الذي يكون خفيا يبعثه في الجملة نظام الأشطار، والجمل القصيرة المتصاقبة، أو واضحا يعتمد على بعض الأسجاع والأهازيج، كما في خرافة المثل الذي يروى عن الضبع، وأنها " سرقة لأعرابي جديا، فقال لها يا ضبيعة أكلته ؟! فقالت لم أفعل. فقال: ماهذه الصفرة بأنيابك، والجمرة بكفيك ؟! فقالت: ماهي إلا حبرة بنابي..وحمرة بالكف من خضابي " (١٦)، وهناك نوع من الخرافات يكون التهزيج فيها هدفا في حد ذاته، كأهزوجة القطاة والحجلة، وأهزوجة الوبر والأرنب. (١٧)

وأبرز حيوانات الخرافة الجاهلية الضبع، والثعلب، والضب، كما ذكر الأسد في نصين، وذكرت الضبية في نصين في قصتها مع الضبع سارق ولدها، وذكر الغراب في نصين أيضا، وذكرت الأرنب مرة واحدة،أما الذئب والجمل فقد ذكرا مرة واحدة في كتاب (الدرة الفاخرة) للأصفهاني.. ولقد كانت كل تلك الحيوانات لصيقة بالبيئة الجاهلية، حيث كان يحلو لهم أن يذكروا بعض هذه الحيوانات بكناها، أو بأسماء التحبب، فهم يكنون الضبع بأم عامر، والضب بأبي الحسيل، والأسد بأبي الحارث، ولعلهم يدعون الثعلب بثعالة تحببا ويكنونه أبا الحصين.

ولاشك أن الموروث الجاهلي من الخرافة الحيوانية قد فقد كثيرا من النصوص، ولكن ظل منه ما كان الأعراب يروونه في العصور الإسلامية، وعرض منه كم لا بأس به سابقا، وسنحاول دراسة نموذج واحد الآن، نراه مناسبا للدراسة النصية، محاولين استكناه الحقل الدلالي الموحي بالغموض والغرابة، فضلا عن اكتناه مورثنا العربي في ضوء مستجدات الدراسات المعاصرة .

إن الألسنة العربية عرفتها حضارتنا العربية قديما، وقد أفادت منها الألسنية الغربية المعاصرة، وليس من الصواب من يظن ان النقد العربي الحديث والمعاصر قد عرف المنهج السيميائي – الذي سنتبعه في دراستنا هذه – نتيجة الاحتكاك بالغرب.

إن السيميائية المعاصرة، ارتبطت بالنموذج البنيوي المعاصر الذي قدمه دي سوسير، حين جعل من اللسانيات علما شاملا تستفيد منه المعارف الأخرى، كالنقد الأدبي والأسلوبية، والتحليل النفسي، وعلم الاجتماع .

لقد وجدت سيمياء الدلالة المبحث اللساني مرتكزا أساسيا تقوم عليه، وتلجأ إلى تطبيق الثنائيات السيميائية على موضوعات لغوية وغير لغوية، وتفاعلت مع علوم أخرى، وارتبطت منهجيا بدراسة الأدب والموسيقا والمسرح والسينما .

ويرى سوسير أن اللسانيات أخص من السيميائية لأنها جزء عنده منها، وهي الحقل الأوسع أما رولان بارت فيرى أن السيميائية جزء من اللسانيات وفرع عنها، وأن كثيرا من العلامات البصرية والأنساق غير البصرية تستعين بالأنظمة اللغوية، التي يجعل هذه الأنظمة هي الأصل.

ولا نريد أن ندخل في تفاصيل تعدد مصطلحات السيميائية، واختلاف الباحثين في ذلك، لكننا نؤكد أيضا أن هذه المصطلحات دالة في عمومها على فكرة واحدة هي النظر إلى العلامة بوصفها إشارة تدل على أكثر من معنى .

تهدف السيميائية إلى تحويل العلوم الإنسانية، وبخاصة اللغة والأدب والفن، من مجرد تأملات إلى علوم بالمعنى الدقيق للكلمة، من خلال أنساق من العلاقات تكشف عن الأبنية العميقة التي تنطوي عليها.

أما المنهج السيميائي فيبحث في سياقات النصوص، وعلاقاتها ودلالاتها الثقافية، فهو ليس منهجا شكلانيا يسعى للكشف عن البنى المجردة، ولا سياقيا يبحث عن تطابق الواقعة النصية مع الواقعة الفكرية، إنه منهج يؤكد خصوصية النصوص وروابطها في التاريخ والثقافة.

وعندما نتحدث عن بنية المثل حسب ليفي شتراوس، فإنه يعتبر أن الظواهر الاجتماعية أو أشكال التعبير لدى الإنسان ما هي إلا قشرة لبنى داخلية تعكس نظرة الناس إلى لكون والحياة ×.

إن البنية الدلالية للأمثال تتضمن أنماطا عديدة من العلائق الدلالية، والتحليل البنيوي يهتم بنظام العلاقات التي تربط بين عناصر النص، لذلك فالاهتمام يجب أن يوجه إلى ماكان داخلا في نظام الاختلاف الذي يسمى شكل المضمون وهو التحليل البنيوي.

ووفقا لأبعاد السيميائية الثلاثة سنتناول مثلا واحدا ندرس فيه البعد النظمي السياقي (منظومة العلامات) من خلال الوحدات السردية، والبعد الدلالي من خلال المكون التركيبي، ثم نوضح المكون التركيبي، بعدها نتناول المكون السردي للنص .

× ينظر في ذلك، السيميائية أصولها ومناهجها: ورقة علمية، إعداد سعدية موسى / جامعة السودان / قسم اللغة العربية.

[النص]

"خاصم الضبّ الضفدع في الضما، أيهما أصبر، وكان للضفدع ذنب، وكان الضبُّ ممسوحا، فخرجا للكلأ، فصبرت الضفدع يوما ويوما، فنادت: يا ضب وردا وردا !!

فقال الضب:

أصبح قلبي صـردا / لا يشتهي أن يـردا / إلا عرادا عـردا / وصلّيانا بـردا /

فلما كان اليوم الثالث، نادت: يا ضب وردا وردا !!

فلم يجبها إلى الماء، وأتبعها الضب، فأخذ ذنبهـا " [الدرة الفاخرة: ١/ ٢١١، ٢١ ٢، صرد: الصرد البارد، ويعني بكلامه التسلي عن الشيء، وطيب النفس عنه. عرادا: العراد والعرادة حشيش طيب الريح، أو هو أحد أشجار البادية (لسان العرب: ع. ر.د، الصليان: نبت في البادية (لسان العرب: ص. ل. ي)]

الوحدات السردية :

١- خاصم الضب الضفدع في الضمأ، أيهما أصبر. (أ)

٢- وكان للضفدع ذنب، وكان الضب ممسوحا . (ب)

٣- فخرجا للكلأ، فصبرت الضفدع يوما ويوما . (ت)

٤ - فنادت: " يا ضب وردا وردا " (ث)

٥ – فقال الضب: " أصبح قلبي صردا، لا يشتهي أن يردا، إلا عرادا عردا، وصليانا بردا . " (ج)
٦– فلما كان في اليوم الثالث نادت: " ياضب وردا وردا " . (ح)
٧– فلم يجبها إلى الماء، وأبعها الضب، فأخذ ذنبها. (خ)

أولا: المكون التركيبي:

(أ) فعل ماض + فاعل + مفعول به = جار ومجرور + مبتدأ = استفهام للتمييز (أيهما) + خبر (أصبر)
(ب) عطف (و) + فعل ناسخ (كان) + خبر مقدم + مبتدأ مؤخر + عطف (و) + فعل ناسخ (كان) + مبتدأ + خبر.
(ت) عطف (ف) + فعل ماض + فاعل مستتر + جار ومجرور + حرف عطف (ف) + فعل ماض + تاء التأنيث + فاعل + ظرف + عطف (و) + ظرف (معطوف).
(ث) عطف (ف) + فعل ماض (قال) + ت التأنيث: حرف نداء (يا) + منادى + مفعول مطلق + توكيد لفظي للمفعول المطلق.
(ج) عطف (ف)+ فعل ماض (قال) + فاعل: فعل ناسخ (أصبح) + مبتدأ×× + ي ملكية + خبر + أداة نفي (لا) + فعل مضارع + فاعل مستتر + مفعول به = حرف مصدري (أن) + فعل مضارع + فاعل مستتر.
(ح) عطف (ف)+ ظرف (لما)+ فعل ناسخ + مبتدأ محذوف×× + خبر = جار ومجرور + فعل ماض (قال) + ت التأنيث: حرف نداء (يا) + منادى + مفعول مطلق + توكيد لفظي للمفعول المطلق = الوحدة السردية الرابعة د).
(خ) عطف (ف) + نفي (لم) + فعل مضارع + فاعل مستتر + مفعول به (ضمير متصل)+ جار ومجرور + عطف (و)+ فعل ماض + مفعول به مقدم (هاء) + فاعل + عطف (ف) + فعل ماض + فاعل مستتر + مفعول به + مضاف إليه×××

×× فضلنا استخدام مصطلح مبتدأ الأسماء الأفعال الناسخة وأسماء إن وأخواتها لتلافي تعدد الاصطلاحات .
×× لا يغفل المكون التركيبي المكونات الموجودة في البنية التحتية للجملة كالفاعل المستتر والمبتدأ المحذوف.
××× في كل مرة يذكر فيها مصطلح مضاف إليه يعرف بداهة أن التكوين السابق له هو مضاف.

التحليل:

توضح شريحة المكون التركيبي أن جمل النص قصيرة، تعتمد على مكوناتها الأساسية من: فعل، وفاعل، ومفعول، أو مبتدأ وخبر، محتفظة بترتيبها، أو وجد بها تأخير أو تقديم. إذ ليس هناك تركيبات معقدة، وليس هناك أسماء موصولة تطيل من تركيب الجملة، وليس هناك أبدال أو صفات، وإن وجدت فهي بسيطة تهدف إلى إضفاء النغم للنص، كما يحدث في الوحدة (ج): " إلا عرادا عردا، وصليانا بردا "، وكما يحدث في وظيفة التوكيد في الوحدتين (ث، ح): " وردا وردا."

وتميل بنية النص التركيبية على الرغم من بساطتها إلى الحيوية والحركة النشيطة ؛ بسبب اعتمادها على حروف العطف الخفيفة: كالواو، والفاء، واستخدام هاتين الأداتين العاطفتين أسلوب في السرد تكاد تقتصر عليه بنية النص الخرافي الحيواني في المثل الجاهلي، فأدوات العطف الخفيفة لأدوات فعالة في زيادة سرعة الحدث في النص، مما يزيد من حيوية بنيته السردية.

ويمكن ملاحظة استخدام العطف في النص بين الظرفين المتطابقين (يوما ويوما) في الوحدة السردية (ت)، وهو تركيب يعوض كلمة يومين، وتطابق المتعاطفين يجعل الحدث يزداد سرعة بالنسبة لطول الجملة، مع إضافة التشويق والتنغيم لبنية السرد، فصبرت يوما ويوما ليس مثل قولنا: صبرت يوما وصبرت يوما آخر. أو مثل قولنا: صبرت يومين. لأن القول الأول يبطيء الحدث بالنسبة لطول الجملة، والقول الثاني يفقد الجملة التنغيم، الذي يحدث التشويق ؛ لأن العطف بالواو التي تفيد مطلق الجمع، يحدث تنويعا في الجملة، كقولنا: " ساعة وساعتين، يوما وليلة " هذا إذا جاء بين متعاطفين مختلفين، فما بالك إذا تطابق المتعاطفان، فذلك يضيف إيقاعا لا يتحقق عند ذكر كلمة (يومين).

وأمر الإيقاع يلفت الانتباه إلى الوحدة السردية (ث)، التي تتكرر بنصها في الوحدة السردية (ح)، حيث استخدمت المفعول المطلق، وأكدته اللفظ نفسه: " وردا وردا "، وقد جاء المفعول المطلق هنا عوضا عن الطلب المباشر: " دعني أشرب "، أو الخبر المشعر بالطلب: " لقد عطشت "، أو " أريد الورود ". وذلك أسلوب أبلغ في الطلب، لأن في حذف الفعل والتعويض عنه بالمفعول المطلق المؤكد له بعدا عن المباشرة في التعبير وهذا أبلغ، وهذا يتحقق أيضا عند عدم استخدام الخبر المشعر بالطلب: "، لأنه لا يحقق الإيقاع للجملة، الذي يحققه لها المفعول المطلق المؤكد اللفظ عينه: " وردا وردا ".

ومما يجعل بنية النص بسيطة استخدامه للأفعال الماضية، لأن الفعل الماضي يقع نقطة لنهاية أحداث السرد، بمجرد روايتها، بعكس الفعل المضارع، الذي يفيد الحال أو الاستقبال، أو فعل الأمر، الذي يهيء متلقي النص لتلقي رد فعل الطلب، فحتى عندما استخدم النص الفعل المضارع لثلاث مرات تجد أن أولها يقلبه السياق النحوي إلى المضي: " لم يجبها "، والثاني يقلبه السياق الحواري إلى المضي أيضا: " قال:.... لايشتهي "، والثالث تقلبه الأداة المصدرية إلى الاسمية: " أن يردا "، والاسم كلمة خالية التعبير من الحدث المرتبط بزمن، فالمفعول المطلق اسم، وفي الاسمية حد من قوة الحدث، أو من قوة الطلب، وهذا يضفي نعومة للنص،لأن الطلب المباشر يهيء المتلقي لرد الفعل فيؤثر ذلك جو النص، أما الاسم فإنه يلغي الحركة في النص أو يكاد، فيكون الطلب عندها ناعما بليغا.

ثانيا: المكون السردي:

صفته	الحدث	هيئة السرد	الوحدة
خصام بين ف١وف٢	خاصم الضب الضفدع في الضمأ، أيهما أصبر	تصوير	أ
إخبار كينونة متناقض بين ف١وف٢ حيث ف١ يملك م	كان الضفدع ذا ذنب، وكان الضب ممسوحا	تصوير	ب
صبر ف٢ على موضوع الخصام	فخرجا للكلأ، فصبرت الضفدع يوما ويوما	تصوير	ت
نداء وطلب	" ياضب وردا وردا ".	حوار	ث
جواب الطلب	" أصبح قلبي صردا.."	حوار	ج
نداء وطلب	" يا ضب وردا وردا "	حوار	ح
أفعال تعدي ف١على ف٢ حيث أصبح ف١ ممتلكا لـ.م	فلم يجبها، وأتبعها، فأخذ ذنبها	تصوير	خ

التحليل:

من خلال الجدول السابق يلاحظ أن حركة النص تبدأ بداية متوترة من أول وحدة سردية، حيث كلمة خاصم توتر الحدث من الأول، ويؤدي أسلوب الاستفهام التمييزي: (أيهما أصبر) إلى إبراز عنصر النزاع، متضافرا مع كلمة (خاصم) في توتير الحدث من الوحدة الأولى، ويزداد عنصر النزاع بروزا في الوحدة السردية الثانية، حيث يبرز موضوع السرد الأساسي وهو الذنب، وذلك باستخدام جملتين اسميتين ذات خبرين متناقضين: " كان للضفدع ذنب، وكان الضب ممسوحا "، وبهما تظهر العقدة في النص التي تدور أحداثها حول الصبر على الماء، وهو يبدو أنه موضوع السرد الأساسي، وبالفعل تنحل عقدة النص في النهاية بحيازة الضب، وهو الأصبر على الذنب، وفقدان الضفدع لذنبه، حيث أصبح ممسوحا.

وبين بروز العقدة وانحلالها يستخدم السرد أسلوب الحوار، وهو وإن كان يوتر أحداث النص إلا أنه توتير مريح ؛ لأنه يستخدم التهزيج والكناية في أربعة أشطار، لكي يكني عن رفض الضب لطلب الضفدع، الذي كنى بدوره عن طلب الورود باستخدام المفعول المطلق، ولا يخفى مالهذا السجع والكناية من دور في إثارة المتلقي، بالإضافة إلى مدّ زمن السرد، حيث تفتح الكناية زمنا داخل النص، يقوم فيه المتلقي بتفسير الرسالة، وبذلك يمتد زمن السرد، حيث تفتح الكناية زمنا داخل النص، يقوم فيه المتلقي بتفسير الرسالة، وبذلك يمتد زمن السرد، ويرتاح توتر النص شيئا ما، وبانتهاء الحوار يتوتر النص فجأة في أسلوب تصويري، حيث تستخدم الوحدة السردية الأخيرة ثلاثة أفعال متوالية، معطوفة تصعّد حركة النص بسرعة شديدة، لتصل إلى انحلال العقدة : " لم يجبها، وأتبعها، فأخذ ذنبها ".

ويسلب الفعل الأخير في الوحدة موضوع السرد: (الذنب) من الفاعل الأول: (ف١) ويعطيه للفاعل: (ف٢) المحروم منه في الأساس.

ويمكن تبين المسار السردي للأحداث من خلال الشكل السابق، إذ يظهر تصاعد الأحداث بداية من الوحدة السردية (أ)، وظهور عقدة المسار في الوحدة (ب)، ثم تتصاعد الأحداث في الوحدة التالية: (ت، ث،ج، ح) ولكن بشكل مريح بسبب استخدام الحوار الذي يضيف الرتم البطيء لبنية السرد أينما استخدم، وبعد الوحدة (ح) يتصاعد الحدث في الوحدة (خ) فجأة ؛ بسبب استخدامها لثلاثة أفعال متوالية في هيئة سرد تصويرية، لتنحل العقدة نحو الضد من بداية السرد في الأخير.

ثالثا: المكون الدلالي:

التداعي الدلالي له	المكون الدلالي
حيون + زاحف + صحراوي + لاحم + مخاتل + حكيم للسباع.	الضب
حيوان + زاحف + برمائي + عشبي + غير مخاتل.	الضفدع
حيوان + عضو + مؤخرة + وسيلة توازن.	الذنب
عشب + أخضر + قوت + حيوان .	الكلأ
سائل + شفاف + حياة + نمو.	الماء

التحليل:

يتكون النص من وحدتين ماديتين فاعلتين، وهما: الضب والضفدع، ويوحي التداعي الدلالي للأول بأنه: " حيوان، زاحف، صحراوي، لاحم، مخاتل " وهو في الخرافة الجاهلية (حكيم السباع)، ويوحي التداعي للثاني بأنه: " حيوان، زاحف، برمائي، عشبي " وبالمقابة مع الضب (غير مخاتل). وتتصارع هاتان الوحدتان الدلاليتان حول موضوع هو الذنب، الذي يوحي التداعي الدلالي له بأنه: " عضو توازن حيواني ". أما المعيق الذي يمنع أيا من الفاعلين من الاتصال بالذنب موضوع السرد هو الماء، الذي يحيي دلاليا بأنه " وسيلة حياة ونمو "، وبالتالي فإن الصبر على الماء هو المساعد في الاتصال بالموضوع، ولذلك كان الضب أجدر في حيازة الذنب من الضفدع ؛ لقدرته على التحمل والصبر، اللذين تحتاجهما الحياة الصحراوية ٬ فضلا عن أن الذنب وسيلة توازن في الحياة البرية، تستعيض عنه الكائنات المائية بالزعانف الخلفية، والكائنات البرمائية بزعانف الرجل، ولذلك أخفق الضفدع في الحصول على الذنب، لأنه في حقيقة الأمر لايحتاجه، فالخرافة إذا من الممكن أن تكون خرافة تفسيرية، تفسر كون الضفدع بلا ذنب، والضب بذنب، بالرغم من إنحدارهما من فصيلة واحدة، هي فصيلة الزواحف، كذلك لاينسى مشابهة الضفدع في طور نموه الأول بالضباب، والخرافة أيضا تشيد بقوة الدهاء والمكر في مقابل الضعف وقلة الحيلة.

وللضب من السمات الطبيعية ما يؤكد أن هذه الخرافة تفسيرية، فالعرب تقول: " أروى من الضب " (١٨) ؛ لأن الضب عندهم مثل الحية لا يحتاج إلى شرب الماء (١٩)، ويقولون: " حتى يجمع بين الضب والنون " (٢٠) ؛ لأن النون عائش أبدا في الماء، والضب لا يرده، ويقولون: " لا أفعل ذلك حتى يرد الضب في إثر الإبل الصادرة "، وهذا ما لايكون (٢١) ؛ لأن الضب لايحتاج الماء، بعكس الضفدع، الذي يشبه النون في عدم استغنائه عن الماء، وهو أكثر احتياجا لها في طور نموه الأول.

إن المكونات المكانية والزمانية لاوجود لها في النص السابق، فكأن الخرافة التي بين أيدينا مجردة عن الزمان والمكان، إذا استثني بعض الملامح الزمانية والمكانية، التي تظهر خلف مكونات النص الأخرى، فمكونات النص المادية الأساسية تتكون من: الضفدع، والضب، والكلأ، والماء، فالخلاء هو تحصيل حاصل لوجود هذه المكونات.

أما الزمان فإنه لا يبدو إلا من خلال الفعل الماضي، المستخدم في النص بصورة شبه مطلقة، أو الفعل المضارع المقلوب إلى المضي في السياق النحوي، أو السياق الحواري. وهذا الاتجاه في تركيز النص، واستغنائه عن وصف الزمان والمكان سمة من سمات الخرافة الجاهلية، لاسيما في النص الخرافي الحيواني، والنص الخرافي الفلكي، وهي ترجع إلى ميل النص الشفاهي إلى الاختصار لاعتماده على

ذكاء السامع في تحصيل الحاصل، كما ترجع إلى أن الخرافة الجاهلية لا تحاول السعي إلى الوصف، بل الحدث هو المهم بالنسبة لها، وبالتالي مغزى الحدث السردي هو الهدف.

الهوامش والمصادر:

١/ لسان العرب، ابن منظور، دار لسان العرب، بيروت، د.ت (مادة مثل) وينظر أيضا فيما بعد في اللسان مادة (خرف).

٢/ شرح الفصيح، للسيوطي،:

٣/ الأمثال العربية القديمة رودلف زلهايم، بيروت، ١٩٧١م،: ٤٤

٤/ ينظر النثر العربي القديم، عبد المجيد عابدين، المقدمة: ج

٥/ المثل السائر في أدب الشاعر والكاتب: ١:٦٠ (ضياء الدين أحمد ابن الأثير، تحقيق أحمد الحوفي، مطبعة النهضة مصر ١٩٥٩

٦/ ينظر فجر الإسلام، أحمد أمين، دار الكتاب العربي، ط١١، بيروت، ١٩٧٥م : ٦٥-٦٦

٧/ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب:٣٨٣ (أبو منصور الثعالبي، مطبعة الظاهر ١٣٢٦هـ

٨/المصدر نفسه ٣٨

٩/ أمثال العرب: ٨٤-٨٥ (المفضل الضبي، تحقيق يوسف النبهاني، مطبعة الجوانب القسطنطينية ١٣٠٠هـ

١٠/ كتاب الأمثال: ٣٧٥ (أبو فيد مؤرج السدوسي، تحقيق أحمد محمد الطيب، مطبعة الجزيرة، الرياضلا ١٩٧٠

١١/مجمع الأمثال، الميداني، تحقيق محمد قطة العدوي، دار الطباعة السنية، بولاق، ١٢٨٤هـ: ٧٧-٧٨

١٢/ ديوانه ٦٩ ومابعدها.

١٣/أمثال العرب ٨٤-٨٥

١٤/ ينظر كتاب الأمثال ٤٣-٤٥

١٥/ كتاب الأمثال ٣٧٥

١٦/ الدرة الفاخرة: ١/١٩٣ (حمزة الأصفهاني، تحقيق عبدالمجيد قطامش، دار المعارف بمصر ١٩٦٦

١٧/ المصدر نفسه: ١/٢١١، ٢٢١

١٨/ المصدر نفسه: ١/٢١٠

١٩/ الحيوان: ٦ /١٢٨

٢٠ / المصدر نفسه: ٥/٥٢٩

٢١/ مجمع الأمثال: ١/٢٧٧